ملف "ثقافة اللاعنف في العراق"

العنف في المجتمع العراقي (٣-٣)

أ.د.قاسم حسين صالح

يمتلك الإنسان منظومة ثنائية من الانفعالات : إيجابية وسلبية ، بمعنى أن كل انفعال إيجابي يقابله انفعال سلبي مضاد له (فرح مقابل حزن..) . ولا يمكن للانفعالين المتضادين أن يظهرا معا " ، إلا في بعض حالات المرض النفسي أو العقلي مثل " الهوس الاكتئابي " .

ويبدو أن الطبيعة البشرية تميل إلى إظهار الانفعالات الإيجابية وترغب في ممارستها بحياتها اليومية ، فالإنسان يحب أن يكون فرحا" مبتهجا" ويكره أن يكون حزينا" مهموما" . وهذا يعني أن الإنسان يرغب ، بطبيعته، في ممارسة الحب وتجنب الكراهية في علاقته بالآخرين . ولهذه الحالة ثلاثة أسباب :

الأول : بيولوجي يتعلق بالدماغ . ففي حالة الحب تنشط خلايا الدماغ وتنتعش ويرتاح ، فيما تضطرب حركة الموجات الدماغية الكهربائية في حالة الكراهية ، ويتعب الدماغ ، الذي يميل بطبيعته إلى ما يريحه ويتجنب ما يتعبه .

والثاني : نفسي . فالشعور بالحب يجلّب المسرّة للنفس ، وينشّط حتى جهاز المناعة فيطيل العمر، ويجعلك تستمتع بالحياة وتراها على طريقة سعاد حسني (بمبي)، فيما ينجم عن الكراهية الشعور بالتوتر ويعيش الفرد حالة المرعوب الذي يتوقع الشر في أية لحظة ، ويرى الدنيا (سوده مسخمه) .

والثالث : اجتماعي . فالإنسان المحبوب اجتماعيا" يكون أكثر ميلا للتعاون ويجد المتعة في مساعدة الناس ، ولهذا فإنه يحظى باحترام الآخرين وتقديرهم له فيزيد من احترامه لذاته وتقديره لها ، فيما يكون الإنسان الذي يتصف بالكراهية أنانيا وحسودا ، ولهذا يميل الناس إلى الابتعاد عنه فيعيش حالة العزلة والنبذ والحقد تنعكس على تدهور احترامه لذاته ، وقد يصل به الحال إلى أن يكره حتى نفسه .

ولهذه الأسباب (العضوية المريحة للدماغ والجسد ، والنفسية المريحة للروح ، والاجتماعية في العلاقة الممتعة بين الفرد والآخر) فإن الغالبية المطلقة من الناس تتجنب الكراهية وتسعى إلى أن يكون الحب هو السائد بينهم ، باستثناء الحالات المصابة بأمراض عقلية أو اضطرابات في الشخصية ، وهم قلّة . غير أن هنالك كثرة بين الناس يبدون لنا طبيعيين ولكنهم عصابيون ، والعصابي تتحكم به الكراهية رغما عنه وتثير فيه الانفعالات السلبية أكثر من الإيجابية .

هذا يعني أن الطبيعة البشرية السليمة نفسيا تختار الحب عفويا" وتسعى إلى أن تجعله يسود بين الناس ، ولا تلجأ إلى الكراهية إلا مضطرة أو مجبرة .. فما أسباب ذلك ؟

متى يضطر الإنسان إلى كراهية الآخر ؟

الإنسان منظومة من حاجات متنوعة ومترابطة ، تتمثل بالآتي :

- حاجات البقاء : طعام ، سكن ، ماء ، هواء ...
- حاجات اقتصادية : مصدر رزق يكفيه ولعائلته .
- حاجات نفسية : الشعور بالحب والأمن والراحة وعدم توقع الشر أو الخطر .
- حاجات اجتماعية : التمتع بمكانة اجتماعية تمنح التقدير والاحترام والاعتبار الاجتماعي .
- حاجات معرفية وجمالية: الحصول على العلم والمعرفة والثقافة والاستمتاع بالجمال.
- حاجات انتمائية : انتماء إلى : جماعة ، عشيرة ، حزب ، قومية ، دين ، مذهب ، ... يكون الفرد في حالة اندماج أو توحّد بها ، ويشعر بأن ما يصيبها من خير أو شر ، يصيبه .

فإذا حرم الإنسان أو أحبط أو منع أو حيل بينه وبين تحقيقه هذه الحاجات المشروعة ، وشعر بأن الآخر (فرد ، طائفة ، حزب ، حكومة ، ...) كان هو المسؤول ، اضطر إلى أن يكره من كان هو السبب .

وأخف درجات الكراهية هي التي يشعر بها الفرد ويستطيع إخفاءها أو التعبير عنها بشكل خفيف ، وأوسطها درجة الغضب الذي يجري التعبير عنه لفظيا" (السب ، التشهير ..) أو جسديا" (الضرب بالأيدي..) . ويحصل الغضب حين يشعر الفرد بأن صديقا له قد خانه أو خذله ، أو أنه لا يعامل بشكل عادل ، أو حين يتوقع حصول اعتداء عليه . وأقوى درجات الكراهية حين تصل إلى حالة " الحقد " التي تدفع صاحبها لممارسة العنف ضد الآخر الذي يرى فيه المستلب أو المغتصب أو المانع لحق أو حاجة مشروعة تخصه أو تخص الجماعة التي ينتمي إليها .

أما الظروف التي تساعد على التعبير عن الكراهية بين الجماعات أو تكبحه ، فتتعلق بالآتي :

- طبيعة السلطة وسيادة القانون .
- سيكولوجية طرفي أو أطراف الكراهية .
- النتائج الناجمة عن مواقف أطراف أو جماعات التحريض على الكراهية .

فحين تكون السلطة دكتاتورية أو قاسية في ظلمها ، ويكون القانون سائدا" ، وحكومة السلطة قابضة على النظام بيد محكمه ، فإن الناس المقهورين أو المظلومين يكبتون كرههم نحو السلطة بدافع الخوف منها .

ويحصل أن الكراهية بين الجماعات في المجتمع الذي تحكمه سلطة دكتاتورية ظالمة ، تتراجع أو تدخل في دورة " سبات " لأن هذه الجماعات ، برغم اختلافها في الدين أو القومية أو المذهب.. توحّدها الكراهية نحو السلطة الظالمة التي تحكمهم.

وحين تكون السلطة ديمقراطية وقوية في تطبيقها القانون وسيادة النظام ، فإنه يجري التعبير عن الكراهية بين الجماعات ولكن بوسائل سلمية في الغالب (تظاهرات ، ندوات ، مقالات في صحف ، أحاديث في الإذاعة والتلفزيون..) .

اما اذا تضاءلت هيبة السلطة وكانت ضعيفة في تطبيق القانون وفرض النظام ، فأنه يجري التعبير عن الكراهية بين الجماعات بأساليب العنف والعدوان.

وفي ما يخص سيكولوجية طرفي أو أطراف الكراهية ، فإن لانفعال الكراهية مكونين (معرفي – عقلي) و(حضاري . اجتماعي)، بمعنى انه كلما زاد الوعي والتفكير بعواقب الأمور بعقلانية وواقعية زادت سيطرة العقل على التحكم بانفعال الكراهية ، والعكس صحيح ، ولهذا يتعطل دور العقل في التحكم بانفعال الكراهية بين الفئات الاجتماعية التي يكون فيها مستوى الوعي متدنيا" ، ومستواها الحضاري واطئا" أو معدوما".

وفي ما يتعلق بالنتائج الناجمة عن مواقف الكراهية، فإن المواقف إذا تحولت بين أطراف الكراهية إلى عدوان ينجم عنه ضحايا ، تطور العدوان إلى عنف يشيع بين " رعاع " جماعات الكراهية بعدوى نفسية تأخذ أسلوب العنف العشوائي .

أما جهات التحريض على الكراهية من خارج الأطراف المتصارعة ، فإنها – لأسباب تتعلق بانتماءات عقائدية أو عشائرية .. أولمصالح اقتصادية وسياسية – تعمل على تحريض الجماعة التي تنتصر لها وتظهرها كما لو كانت مظلومة أو مستلبا حقها أو متجاوزا عليها حتى لو كانت الحقائق لا تؤيد ذلك .

حين تكون السلطة ديمقراطية وقوية في تطبيقها القانون وسيادة النظام، فإنه يجري التعبير عن الكراهية بين الجماعات ولكن بوسائل سلمية في الغالب (تظاهرات، ندوات، مقالات في صحف، أحاديث في الإذاعة والتلفزيون، أما إذا تضاءلت هيبة السلطة وكانت ضعيفة في تطبيق القانون وفرض النظام، فإنه يجري التعبير عن الكراهية بين الجماعات بأساليب العنف والعدوان.

ثقافتنا الانفعالية

إن التعبير عن الانفعالات ، ثقافة نتعلمها من البيت والمدرسة والشارع والمؤسسات الاجتماعية، وأهم الوسائل في إشاعة ثقافة الحب هي تنمية قيم الجمال والفرح والتفاؤل ، لكنك حيثما وليت وجهك في العراق تجد مظاهر القبح والحزن والتشاؤم هي الأكثر..في الناس ، وفي الطبيعة أيضا ، فحتى النخيل حرقت جدائله ولا تزال جذوعه متفحمة ، والناس من ألف عام يلطمون وينوحون ..حتى صار التباهي بالحزن حالة تنافسية بين العراقيين! . والمفارقة أن صحفنا ومجلاتنا ، دع عنك مسلسلاتنا التلفزيونية المنشغلة بإعادة إنتاج فواجعنا ، من النادر أن تجد فيها موضوعات تثير البهجة والفرح وتقدح مشاعر الحب .

إن أفدح خسارة في العمر أن يعيش الإنسان من دون حب ، وأسوأ كارثة اجتماعية أن يضيّع شعب فرصة متوافرة لإشاعة الحب والتعافي من حالة إدمان على الكراهية .

هامش:

"×"في العام ١٩٩٤ قمت بتحليل شخصيات عصابة لسرقة السيارات المصحوبة بقتل أصحابها مؤلفة من خمسة أشخاص.كان رئيس العصابة شابا بعمر ٢٨سنة وبجسم رياضي وكان صاحب موبليات في مدينة الموصل..أي انه ما كان بحاجة مادية

حصاد الكراهية

زمن الحصار.كانوا يمارسون القتل في مدينة بغداد ويبيتون في الليل بجناح خاص في فندق منصور ميليا. ولقد سألت رئيس العصابة الذي قام بست عمليات قتل عن شعوره بعد كل عملية قتل فأجابني (عادي!).وحين سألته:لنفترض أنهم ألبسوك البدلة الحمراء وأخذوك فجرا إلى الإعدام.. فعلى ماذا ستندم؟.أجابني:سأندم أنني لم أقتل أكثر!.ومع أن التحليل النفسي يشخّص حالته انه (سيكوباث) إلا أن التحليل الأعمق والأصدق أن قيمة الحياة عند العراقيين تراجعت من عام وأنها أدت عبر ٣٢سنة إلى استسهال الموت عند العراقيين بقتل بعضهم بعضا لدرجة أن عدد القتلى في تموز ٢٠٠٦ وصل إلى مئة شخص في اليوم الواحد!.

رئيس الجمعية النفسية العراقية

الدكتاتور القانوني في الموصل

عبدالكريم يحيى الزيباري

×ماذا تفعل لو كنتَ ملكاً؟
– لا أفعلُ شيئاً!
×ومَنْ الذي يحكم؟
– القوانين!

هذا الحوار الفلسفي ساقَهُ فرنسوا كيناي(١٦٩٤– ١٧٧٤) لكن أحداً لم يسأل:
أين وظيفة القانون في الحد من صلاحيات السلطة وتقييدها؟
أين قدرة وكفاءة ونزاهة مؤسسات الدولة في تطبيق القانون؟
ماذا نفعل إذا لم تمارس السلطة دورها في بسط حكم القانون على الجميع؟
ماذا نفعل إذا كانت القوانين أداة طيّعة بيد الطاغية؟
ماذا نفعل وهو يلوِّحُ بسلاح التجريم في وجوه خصمائه السياسيين؟
ينتهكُ القانونَ متى شاء بضمير نائم، كعبارة نابليون عند دخوله باريسَ في ١٨١٥/٣/٢٠ عائداً من منفاه، بين صفوف الشعب المحتفلين،"أنا لم أغتصب تاج فرنسا، لقد عثرت عليه في مجاري باريس القذرة من فساد أسرة ال بوربون، فالتقطته بسيفي، ومن ينقذ الأمة لا ينتهكُ القانون". فالدكتاتور يرى أنَّ من حقِّه مخالفة القانون، ولقد رأيتُ صدام حسين في الثمانينات في إحدى خطبه يتهكّم بالقانون "القانون نحنُ الذين وضعناه لخدمتنا، ومتى ما رأينا أنَّهُ يقفُ عائقاً، نحيناه جانباً " وهناك من هو أخفُّ حدّة، فإذا انتهك القانون، سيجدُ لنفسه تبريرات مختلفة، في نص محاضرة لكارل بوبر في جامعة القديس غال في سويسرا عام ١٩٨٩ "المستقبل مفتوح ومتعلق بنا جميعاً، إنَّه متعلق بما تفعله وأفعله ويفعله غيرنا من الناس، اليوم وغداً وبعد غد، وما سنفعله متصل هو الآخر بفكرنا ورغباتنا وآمالنا وتخوفاتنا، بتعبير آخر، إنَّهُ متصل برؤيتنا العالم وبحكمنا وتَّقديرنا الإمكانات الكبيرة والواسعة والمفتوحة التي يحملها لنا المستقبل.. سقراط أول من فهم هذه الحقيقة، كان يقول بأن على رجل الدولة أنْ يكون حكيماً، بمعنى أكثر حكمة حتى يعرف أنَّهُ لا يعرف شيئا " . لكن ماذا نفعلُ مع حاكم ذي سلطة، يعتقدُ جازماً أنَّهُ يعرفُ كلَّ شيء؟ فيتحدث في طبِّ العيون والسياسة والقانون والأدب والفلسفة والدين، والفنون، وكلِّ شيء آخر، وماذا نفعلُ أمام الآخر الذي كَوَّن أحكاماً مسبقة عن الآخر المختلف؟ باعتباره ذا درجة أدنى، ويلوِّح بعصا السلطةَ القانونية التي يملكها، يمسكها من الوسط، طرفها الأول سلاح التجريم قانونياً، وطرفها الثاني سلاح العفو العام أو الخاص.

نقاط التفتيش تصنع زحاماً لا أمناً

في الديمقراطيات الحديثة: مَنْ هو السيد: القانون أم الإنسان؟ مَنْ الذي يمارس الحكم؟ مَنْ الذي بمقدوره سحب القانون الذي يحتاجه من رفوف القضاة؟ مَنْ الذين يُعيِّن القضاة: الحاكم أم الشعب؟ في الولايات المتحدة يقوم الرئيس بتعيين القضاة كافة، بعد التشاور مع موظفي البيت الأبيض، ومكتب وزير العدل، واللجنة القانونية في مجلس الشيوخ، وبعض السياسيين النافذين، ما هي ضمانات استقلال هؤلاء القضاة وهم يدينون بالولاء إلى الشخص الذي قام بترشيحهم ودعم عملية تعيينهم؟ كذلك الأمر بالنسبة إلى القادة الأمنيين، ولم يحقق الغرب أدنى تقدُّم، حتى وقفوا سواسية تحت مظلة القانون، وكان قادتهم أول الملتزمين، وانغرست الثقة في حكم القانون، وتوفرت الحريات والأمن واستقرار المعاملات اليومية، فتحققت الرفاهية وقد عنونَ ابن خلدون في مقدمته الفصل الثالث والأربعون في أن الظلم مؤذن بخراب العمران فقال: "العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك... فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم في المكاسب كسدت أسواق العمران وانتفضت الأحوال وابذَعَرَّ الناس في الآفاق " وها نحنُ نرى الخراب والفقر في مدينة الموصل، خاصة بعد فرار رؤوس الأموال والتجار وغلق المصانع الخاصة والمشاريع الاستثمارية، ورغم انحسار حالات الخطف والابتزاز بعد انتشار نقاط التفتيش في كلِّ مكان، لكن الاغتيالات مستمرة على قَدَمْ وساق، ولم يعد أحدٌ من الذين ابْذَعَرُّوا في دمشق وعمَّان ومدن العالم، كما أنَّ بعض نقاط التفتيش تمارسُ إرهاباً وتضطهد المواطنين لأتفه الأسباب، ويطلقون عليهم أقذع الشتائم، وأحياناً يعتدون عليهم بالضرب والتوقيف لساعات وربما لأيام تطول أو تقصر بحسب مكانة الموقوف الأجتماعية والاقتصادية وعلاقاته، وإنَّ غلق الشوارع التجارية الرئيسة، كشارع حي الجزائر لضرب تجارة الدجاج والبيض واللحوم، وغلق شوارع ضيقة في باب السراي لضرب تجار الجملة، وغلق البورصة في باب سنجار أو تحديدها بشارع واحد، إنَّ غلق الشوارع لن يسهم في توفير الأمن، لأنَّهُ يُسبِّبُ ضرراً اقتصادياً عاماً، والأمن لن يتوفر بدون مساعدة المواطن، الذي بفقره وتعاسته وشعوره بالمظلومية واللامساواة، يشعر بالاغتراب أمام مؤسسات الدولة، ويفتقر الولاء إلى دولة تسهم في تحطيمه!

جهل مركّب

علي حسين عبيد

أعني بالجهل المركّب، أن بعضهم ممن أصابهم الجهل، لا يعلمون بذلك، أي يجهل المصاب بالجهل بأنه جاهل، وهذه العقدة أو النقص المركب، قد يكون خطره أقل فداحة حين يتعلق بإنسان ذي وعي بسيط، ولكن حين يتعلق الأمر بالمثقف المعني بإدارة وتطوير مسارات الثقافة، فإن الضرر سيكون فادحا، هنا يُطرَح التساؤل الآتي، ترى هل يوجد لدينا مثقفون مصابون بالجهل المركب؟ وما تأثير ذلك على الثقافة والمجتمع عموما؟

لاشك أننا حاضنة تقبل هذه الظاهرة وتساعد على انتشارها، وأعني بالحاضنة طبيعة المجتمع ومكوناته ودرجة وعيه وتنوعه، لذا فالاتفاق على وجود المثقف مركب الجهل في ساحتنا الثقافية أمر لا مفر من الاعتراف به، ولابد من أن نؤكد وجود مثقفين مصابين بهذا (المرض)، وهم يدّعون الانتساب للثقافة والحرص عليها والعمل في مجالاتها المتعددة والمتنوعة، لكنهم في الوقت نفسه، يجهلون أنهم مرضى بالجهل، والسبب لأنهم مغلقون على ذواتهم وأفكارهم ومنابعهم الثقافية، أو الفكرية التي يستقون منها تنمية وعيهم وأفكارهم.

أما المثقف غير المعتلّ، فهو الذي يعيش طالبا دائما في مدرسة اسمها الحياة، يتعلم منها ويتعاطى معها ما بقي حيّا، يعلّم ذاته ويطوّر عقليته ويرتفع بمداركه إلى أقصى حد ممكن، ليس لنفسه فحسب، بل لإنجاز الدور المهم المناط به، فهو كمثقف لا يتساوى مع الآخرين في تدني مسؤولياتهم إزاء المجتمع، بل هو عنصر فاعل متحرك يدفع بثقافة الجميع إلى نقاط ومستويات أفضل دائما، وهو المثقف العضوي (بحسب تعبير غرامشي) الذي لا يحصر ذاته وأفكاره وأفعاله في حيّز مغلق، بكلمة أوضح في ثقافة مغلقة، طالما كان على قيد الحياة.

لكن المشكلة تتعلق بمن يدّعون الثقافة وهم جهلاء، ليس هذا فقط، بل يجهلون أنهم لا يجهلون!!، لذا هم ببساطة لا يقرؤون، ولا يطالعون إلا ما يتفق مع (أحاديتهم الفكرية)، أما الفكر أو الثقافة التي تختلف معهم وأفكارهم وتوجهاتهم، فإنها بمثابة العدو اللدود الذي لا يجوز التقرب منه والاطلاع عليه، خوفا من حدوث التسمم أو التلوث الفكري الذي قد يتعرضون له.

وبهذا يبقى المثقف أسير الأحادية والتزمت والاعتداد الفارغ بنفسه وبـ (جعبته الثقافية والفكرية) التي يظن أنها محصّنة من الوقوع في الخطأ، ولا ينبغي المساس بقدسيتها تحت أي مبرر كان، والمشكلة أن المثقفين من هذا النوع يتعامون (بقصد أو دونه) عن رؤية الحقائق الفكرية والثقافية التي تطرح نفسها عالميا بين حين وآخر، ويرفضون رفضا قاطعا حوار الثقافات، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك حين يكفّرون الرأي الآخر، أي الذي يختلف معهم، ويعزلونه أو يعتزلونه في ذوات مغلقة لا تؤمن قط بأهمية تلاقح الأفكار الإنسانية مهما كان مصدرها، أو العقلية التي تطرحها.

لذا مثل هذه الأجواء الأحادية، تساعد على خلق المثقف المكتفي بذاته، أي المثقف مركب الجهل الذي يتجنب تجارب الآخرين، وينظر إليها بعدائية وخشية غير مبررة، أو يهملها في أفضل الحالات إن لم يقصها تماما من فكره ووعيه، استنادا إلى قاعدته الثقافية والفكرية التي تنحو به صوب الانطواء في دهاليز الذات العميقة.

هذا النوع من المثقفين لا ريب يشكل خطرا على الثقافة والمثقفين أنفسهم، ثم على المجتمع عموما، لا سيما أننا مجتمع بدأ الآن يرى في نهاية النفق ضوء التحرر والانفتاح على الثقافات الإنسانية، إننا نرغب في أن نندمج مع العالم أجمع في ثقافة إنسانية متحررة لا تستلب أو تشوّه هويتنا، ولكننا حريصون على التفاعل المشترك، في فضاء ثقافي عالمي إنساني، يتيح لنا الاستفادة من تجارب الآخرين ويمنحنا لذة الاكتشاف والاندفاع نحو الأفضل، ولا يتم تحقيق هذه الهدف الجوهري بحضور أو هيمنة المثقف مركّب الجهل.